المدرسة العادلية الكبرى بدمشق صرحٌ ثقافي شامخ

تولى فيها التدريس قاضي القضاة وصارت محكمة للقضاء وكان فيها أعلام الأدب واللغة

نبيل تللو

في كلِّ مرة أتجول بمدينة دمشق القديمة، التي تبهرني بأحيائها الضيقة ومبانيها الفخمة ذات الواجهات الحجرية والبوابات الواسعة، تستوقفني متأملاً بتاريخها العريق، ومنها «المدرسة العادلية الكبرى»، الواقعة في حي «باب بريد» قرب الجامع الأموي، تجاه المكتبة الظاهرية، وفي هذه المقالة تعريفٌ لكرام القارئات والقراء بهذه المدرسة تاريخاً وحاضراً، آملاً أن يتذكروا ما نسوه، وأن يتعرفوا على ما لا يعرفونه.

المدرسة ذات بناء حجري منحوت وسقف خشبي، لها أربع واجهات طوَل الواحدة منها نحو خمسين متراً، تخترق الشرقية منها بوابة كبيرة تؤدي إلى دهليز يفضي بدوره إلى باحة كبيرة يتوسطها بركة ماء، وتحيط بالباحة الغرف الإدارية والدراسية الموزعة على طابقين يصل بينهما أدراجٌ حجرية، وكامل المبنى يمثِّل نموذجاً رائعاً عن عمارة الفترة الأيوبية. يُشار إلى أنها مدرجة منذ عام ١٩٧٩ في لائحة التراث الثقافي العالمي لدى منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) على اعتبار أنها جزءٌ من مدينة دمشق القديمة.

بدأ بإنشاء المدرسة العادلية الكبرى عام ٥٦٨ هـ، ١١٧٣ م الملك «نور الدين محمود بن زنكي» (٥١١ – ٥٦٩هـ، ١١١٧ – ١١٧٣م)، ولم يرتفع من بنيانها إلا القليل عند وفاته. ثم جاء الملك «العادل الأيوبي سيف الدين أبو بكر أحمد» (٥٣٩ – ٦١٥هـ، ١١٤٤ – ١٢١٨م) أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي فزاد في رقعتها، وأرادها مدرسة ضخمة فخمة جامعة، ودعيت باسمه، غير أن المنية عاجلته قبل إتمامها، ودُفنَ بقلعة دمشق، وقام ابنه الملك المعظم عيسى بن العادل (٥٧٨ – ٦٢٤هـ، ١١٨٠ – ١٢٢٧م)، الذي حكم دمشق بين عامي (٦١٥ – ٦٢٤هـ، ١٢١٨ – ١٢٢٧م)، بإتمام عمارتها وأوقف لها أوقافاً واسعة، ونقل في عام ٦١٩ هـ – ١٢٢٢ م، وهو العام الذي افتتحت به المدرسة، رفات والده من قلعة دمشق ودُفن في تربةٍ تعلوها قبة حجرية، وما زال الضريح حتى اليَوم، وسُمِّيت المدرسة باسمه: «المدرسة العادلية الكبرى» وما زالت تحمل الاسم نفسه حتى اليوم.

كان الملك المعظم مغرماً باللغة العربية وآدابها، فأراد تحقيق أفكاره وميوله في هذه المدرسة التي أصبحت سيدة مدارس دمشق، ولم يشأ أن يغير ما أُنشئت من أجله وأن يهدم مشاريع سلفه، فجعلها قسمين: قسم للفقه، وقسم للقراءات والعلوم العربية، فكان عالم البيت الأيوبي من دون منازع، وحامل راية ثقافتهم، ومفخر دولتهم على مرِّ الزمان، وقيل عنه إنه كالمأمون في بني العباس. ولم يمنعه اشتغاله بسياسة بلاده ومقارعة الأجانب عن التأليف ومنها: كتاب في العروض، شرح الجامع الكبير، ديوان شعره، كتاب في الرد على الخطيب البغدادي. كما أقام مؤسسات علمية لتعزيز العلوم والآداب، منها: «المدرسة النصريةً» نسبة للشيخ نصر المقدسي في مدينة القدس، مدرسة الحنفية بالقدس، المدرسة النحوية بالقدس. كما سعى لنشر اللغة العربية بوضع جوائز متعددة لمن يحفظ كتبها، ودعا لتأليف معجمٍ كبير جامع للغة العربية، وبذل المال بسخاء للعلماء، وقلدهم الوظائف الكبيرة وأجرى لهم راتباً، ونشَّط حركة التأليف والترجمة في جميع العلوم، وكرَّم الأدباء والشعراء بإسناد الوزارة لهم، وأنشأ مدارس للغة العربية ومكتبات للمطالعة.

ويصف المؤرخون حفل افتتاح المدرسة العادلية الكبرى عام ٦١٩هـ بالجليل، ومما جاء بالوصف: «حضر السلطان المعظَّم وجلس في إيوان المدرسة، وجلس يساره ويمينه كبار علماء زمانه يتقدمهم مدرس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين المصري، ودارت حلقةٌ صغيرة فيها أعيان المدرسين والفقهاء، وامتلأ الإيوان بالناس، وكان مجلساً جليلاً، واشترك السلطان مع الجماعة في الكلام العلمي....».

ومن ذلك الوقت أصبحت التقاليد أن يتولى التدريس فيها قاضي القضاة، وأن تكون محكمة للقضاء الشافعي، كما تولاها أعلام في الأدب واللغة كابن خلكان صاحب وفيات الأعيان، وكجلال الدين القزويني، الذي أصبح كتابه: «التلخيص في علوم المعاني والبديع» كتاباً مدرسياً لسنواتٍ طويلة، وكان يرتادها العلماء واللغويون، ويجريً فيها مباحثات ومناقشات لغوية وأدبية. وضمت إضافة إلى قسمي الفقه والقراءات مجلساً للكتب (قاعة مطالعة)، ومجلساً للفتوى، ومشيخةً كبرى ومشيخة صغرى للإقراء.

وهكذا أصبحت المدرسة العادلية الكبرى قبلة طلاب العلم يُهرعون إليها من أرجاء الأرض، يملؤون رحابها، ويعمرون بأصواتهم وقراءاتهم أنحاءها، ولهم دويٌّ كدوي النحل، ولكن دولاب الزمن يدور، فيفتر القوم، وتصبح المدرسة العادلية في أواخر العهد العثماني داراً متداعية الأركان، متهدمة الجدران، فيها قاضٍ يسكنها ولا يعمرها، وحجراتٌ خاوية خالية، وحشراتٌ ترتع.

وما إن جلا العثمانيون عن الديار السورية عام ١٩١٨، حتى قامت الحكومة العربية فرعت اللغة العربية وسدنتها، وجعلت المدرسة العادلية مقراً للمجمع العلمي العربي، وأذكت شعلة كاد ينطفئ أوارها، وشدت عزائم أوشكت أن تني وتفتر، وأرجعت المدرسة إلى سابق عهدها: مجمعاً للعلماء، وحصناً للغة العربية، وحِرْزاً لكنوزها الغالية.

في الثامن من شهر حزيران عام ١٩١٩ م، صدر أمرٌ حكومي بتأسيس «المجمع العلمي العربي»، وفي الثلاثين من شهر تموز عام ١٩١٩ م، اجتمع المجمع العلمي العربي لأول مرة في المدرسة العادلية الكبرى، وعقد جلسة مشهودة فيها حضرها طائفةٌ من أعضائه، وانتخبوا رئيساً له هو العالم العلامة «محمد كرد علي» (١٢٩٣ – ١٣٨٢هـ، ١٨٧٦ – ١٩٥٣م).

وباستقرار المجمع في العادلية، عاد إلى هذه المدرسة شيء من جلالها القديم وإشعاعها النيِّر، وأضحت مرةً ثانية ندوةً للعلماء يتباحثون فيها ويتذاكرون، ويؤلفون وينشرون، ولا يكاد يومٌ يمر إلا ويدخلها فيه عالمٌ عربي أو شرقي أو مستشرق أو مستعرب، يلقى أعضاء المجمع، أو يسأل عن كتاب، أو يستفتي في معضلة، أو يستزيد علماً، حتى إن رئيسه محمد كرد علي قال عنه: «وكأنَّ المولى قضت إرادته ألا يخلي العادلية والظاهرية من علم يُنشر، وأدب يذكر، فاختارهما مركزاً للمجمع العلمي، يقيم فيها سوقُ العلم والأدب بعد الكساد». كما كانت المدرسة مقراً لمتحف دمشق الوطني عند تأسيسه عام ٢٠١٩.

بتاريخ ١٩٦٠/٦/١٥ صدر القرار الرئاسي رقم ١١٤٤ بإنشاء «مجمع اللغة العربية» بدمشق، الذي حلَّ محل المجمع العلمي العربي، والذي اتخذ من المدرسة العادلية مقراً له، قبل أن ينقل إلى مقره الدائم الحالي في شارع الشهيد عدنان المالكي بدمشق في ثمانينيات القرن العشرين، وبقيت المدرسة تابعةً له، وهي الآن مكاتب إضافية للمكتبة الظاهرية الواقعة قبالتها تماماً، والكل يتبع وزارة التعليم العالي.

برجك اليوم 5/10

نجلاء قباني

قد تعاني توتراً أو انفعالاً ويصعب عليك السيطرة على ذاتك أو على محيطك العائلي، وربما تشعر بالحزن أو بالانقباض فاهتم بنفسك وبأصدقائك ولا تصطدم بمن تحب.

تأتي إلى عملك باكراً وتتحمل مسؤولياتك مؤمناً بما تفعل معتمداً على أصدقائك، ولكنك تشعر بحالة من عدم الرضا أو تشعر بالإحباط نتيجة عملك الكثير والتقدير القليل.

تختصر المسافات وتصل إلى اتفاقات بعين ترصد كل الفرص المتطايرة حولك، لأنك تتزود بالحكمة وبرؤية واضحة مستقبلية تخص أهدافك وعلاقاتك، ومعفى من كل عصبية.

كن أهدأ ولا تجعل حاجتك للحب تفقدك من تحب فعلاً وفكر في كل ما تقوله أو تفعله، وخاصة أن الشكوك قد تراودك والقلق ربما يجعلك عصبياً، فلا تفكر بجديد غير مدروس.

حاول أن تلم شمل العائلة حولك ومعك لدعمك لمنحك الحب والاهتمام والمساعدة، فالحظوظ جيدة بما يكفي لتباشر بجديد أو لتفكر جداً بأمور عائلية في الحب.

ركز تفكيرك في أمورك المالية والمهنية، فأنت في شهر التغيرات الإيجابية، مع أنك تشعر أن محيطك العائلي أو العاطفي يأسرك أو يطالبك بقرارات مالية ليست في محلها.

أنت اليوم محبوب ومرغوب فيه من الأصدقاء أو الرؤساء وتبحث في الجديد، وقد تحس بتغير على صعيد العاطفة أو الأعمال وهو قطاف لجهود الأيام السابقة.

الأمور العاطفية قد تحمل التعب وأنا أعرف أن العاطفة هي أساس حياتك فاحذر من الغيرة، وكل ما أنصحك به هو الصمت إزاء بعض الأوضاع ولا تترك الأمور تفلت من بين يديك.

أوقات ممتازة ومناسبات وقد تحسن علاقاتك لتسير باتجاه الأفضل، حولك مرح وتسلية، وخاصة أصدقاءك القدماء الذين تعود لرؤيتهم أو تستعيدهم بحكم المصادفة أو الحاجة.

لا تستسلم للغضب أو التخاذل في مشاريعك ولا ترد على الاستفزازات والمعاكسات، فقد تتعرض للاتهامات فاعتمد الصبر واللين ولا تنس نصائحي بتحكيم عقلك في كل كلمة تقولها.

ركز اليوم على تواصلك وعلاقاتك ولا تستعجل فأجوبتك منطقية ومقنعة للمحيط، لقاءات حاسمة قد تتراكم في مفكرتك، وخاصة مع غرباء، تبتعد عن الضبابية.

أشخاص كثر إلى جانبك يدعمون أقوالك ويمنحونك المحبة والتواصل والتعاطف، فقد لا تدرك أهمية إحساسك أنك مدعوم بمحبة الآخرين حتى تحتاجها.

كلمات متقاطعة

أفقي:

١- وزير سوري راحل.
٢- من أدوات الطعام – عاصمة أوروبية.
٣- للمساحة (م)- شهر قمري- تنقل.
٤- أظهِر- رَبَط- أزوده (م).
٥- عدم معرفة (م)- عِز- ضمير منفصل (م).
٦- أحلام- حروف متشابهة.
٧- خاصتي- برّاق (م).
٨- كف- مسافات طويلة (م)- نوع موسيقي.
٩- مادة قابلة للاشتعال- نضرب منه السهام.
١٠- نيون (مبعثرة)- أدعم بالنقود.
١١- حرف عطف- فرّق- فحصه (م).
١٢- ضمير منفصل- شرايين (م)- نصب نبال.

عمودي:

١- ممثل مصري- متشابهان.
٢- عناد- من الحروف.
٣- نصف أعرف- كذاب- نصف غوار.
٤- مركزي- مدينة أوروبية.
٥- أكثر ضرورة- نصف جائر- صوت الرصاص.
٦- ضياع- نصف عقيق.
٧- من الحيوانات- رتبة عسكرية.
٨- مساعدة- حروف متشابهة- قِط.
٩- بحر- شجاع- قابل بوضعه.
١٠- مطربة لبنانية.
١١- والدة- مدينة مصرية.
١٢- ممثلة مصرية- زوج (م).

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢
١											■	
٢						■					■	
٣			■						■			
٤					■			■				
٥				■				■			■	
٦		■					■				■	
٧		■				■	■				■	
٨			■						■			
٩		■					■		■			■
١٠	■						■		■			
١١			■				■					
١٢					■	■				■		

الحل السابق:

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢
١	س	م	ي	ح	ا	ل	ق	ا	س	م	■	ح
٢	م	و	ا	ن	ي	■	ا	ر	ب	■	س	س
٣	ي	س	■	ي	ر	ا	ح	■	■	■	و	■
٤	هـ	ا	■	ن	ا	م	ل	■	م	ا	س	ح
٥	ا	■	ع	■	ن	و	هـ	ي	■	ل	■	ب
٦	ل	ف	ي	ف	■	ا	■	■	■	م	ا	ر
٧	خ	ر	ا	ب	■	ل	ا	ي	خ	■	م	ن
٨	ش	■	ل	■	■	ي	و	ن	س	■	و	■
٩	ا	م	■	ب	ح	■	■	ع	■	ع	د	ا
١٠	ب	ا	س	ل	ا	ل	خ	ي	ا	ط	■	ا
١١	■	ر	م	■	م	ي	ج	■	ر	و	س	ي
١٢	ر	ق	ا	ب	■	ل	ل	ل	■	ف	ر	ح

كلمة السر

ف	ي	ص	د	ر	ي	ص	ط	ف	ل	ا	ح
ي	ف	ي	ص	و	ر	ت	هـ	ف	ك	ل	ج
ش	ا	و	ت	ش	ر	ب	ي	ن	أ	ق	ر
ب	ل	أ	ص	ا	ب	ع	ي	و	س	د	ق
هـ	ج	و	أ	ذ	و	ب	ف	ي	ك	ي	د
ف	د	ا	ئ	ف	ا	د	ل	ا	ص	م	ي
ي	ا	ا	ل	م	ر	ي	ح	ن	د	ة	م
ع	ر	ا	ل	ب	ا	ر	د	ة	ر	ب	ع
ي	ا	ل	ل	ذ	ي	ذ	د	ا	ك	ي	ل
ن	و	ي	ت	ث	ا	ء	ب	ح	و	ن	ى
ي	و	ج	هـ	ج	د	ي	ر	ض	ي	ع	ل
و	ي	ن	ب	ض	ا	ل	م	ع	ل	ق	ة

كلمة السر مؤلفة من ٠١ حروف: تشكيلي سوري.

وينبض في صدري حجر قديم.. يشبه وجه جدّي في صورته القديمة المعلقة على الجدار.. ويتثاءب طفل رضيع في عيني.. وتشربين كأسك اللذيذ بين أصابعي الباردة.. وأذوب في صدرك الدافئ المريح..

SUDOKU

7				8				
		8			6	3		
6	5		9		3			
	1	4		2	7			8
3			8		4			1
8			1	6		7	4	
			6		8		1	2
		2	7			6		
				5				7

تتألف اللعبة من تسعة مربعات كبيرة داخل كل منها تسعة مربعات صغيرة، يجب ملء المربعات الصغيرة بالأرقام على ألا يتكرر الرقم أكثر من مرة في كل مربع كبير وفي كل خط عمودي وأفقي.

الحل السابق:

1	4	5	6	9	8	2	3	7
7	6	3	4	1	2	9	8	5
8	9	2	7	5	3	4	6	1
2	3	6	5	8	9	7	1	4
9	1	7	2	3	4	8	5	6
5	8	4	1	7	6	3	9	2
6	5	8	9	2	7	1	4	3
3	2	1	8	4	5	6	7	9
4	7	9	3	6	1	5	2	8

الطقس

	اليوم	غداً
دمشق	٢٥°/٩°	٢٣°/٨°
حمص	٢٢°/١١°	٢١°/٩°
حلب	٢٦°/١٥°	٢٣°/١٢°
اللاذقية	٢٤°/١٦°	٢٣°/١٤°
السويداء	١٩°/٥°	١٦°/٦°
الحسكة	٢٨°/١٤°	٢٤°/١٢°

من هو؟

فنان سوري راحل: إذا جمعت الأحرف.

٦ + ٥: خاصتك
٧ + ٨ + ١: قواعد
٤ + ٣ + ٢: انحناء

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨

حل العدد السابق: تاج حيدر.